كلية : الآداب

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.م.د. نهاد فخري محمود

اسم المادة باللغة العربية : النقد الأدبي القديم

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Old Criticism

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: - نظرية النظم

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية: synthesis theory

مقرر الفصل الثاني

- **نظرية النظم**

لم تكن فكرة النظم التي فصَّل بها عبد القاهر الجرجاني في كتابة "دلائل الاعجاز" جديدة، فجذورها قائمة في بعض كتابات الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، والرماني (ت: ٣٨٦هـ)، والخطابي (ت: ٣٨٨هـ)، والقاضي عبدالجبار(ت: ٤١٥هـ) والباقلاني (ت: ٤٥٣هـ).

هذا يشير إلى أن الجرجاني قد استوعب كلَّ الأفكار التي سبقته في هذا الموضوع، وخرج بنظرية النظم التي تعني بـ (معنى المعنى) أي المعنى الذي يكمن وراء المعنى الظاهري للعبارة، ويريد بذلك المعاني الثانية أو المجازية.

لم يشرح الجرجاني نظرية النظم على نحو منهجي منظم، إنما جعلها متناثرة في الدلائل، وقد ردّد قولين في اكثر من موضع في دلائل الاعجاز وهما: ((إنَّ المعاني لا تتزايد، وإنما تتزايد الألفاظ)) و ((إنَّ الفصاحة لا تَظهرُ في افراد الكلمات، ولكن تظهر بالضم على طريقة مخصوصة)).

وقد حدد الجمال الأدبي في أمرين: أولهما، حسن الدلالة وتمامها. وثانيهما، جمال الصورة التي تخرج منها هذه الدلالة.

ونجد ذلك بقول البحتري:

أتــاكَ الرَّبيــعُ الطَّلْــقُ يَخْتَــالُ ضــاحِكاً مِـنَ الحُسْـنِ حَتَّــى كــادَ أن يَتَكَلّمَــا

نرى أن جمال البيتِ يكمن في اسناده صفات العاقل لغير العاقل، بما يدعى أنسنة الطبيعة، وإن أردت أنْ تعيد البيت إلى لغته الايصالية وابعاده عن جمال صورته الفنية، فاعمد إلى إعادة الصفات إلى الأصل في الوضع المرسوم لها.

ويرى عبد القاهر أن النظم ليس أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وانما توخي معاني النحو في معاني الكلم، ويقيم من هذا عدّة أمور:

١-أنّ هناك نوعين من المعاني، معاني الكلمات، كأن تقول إن معنى ((الحمد)) الشكر، ومعنى ((الرحمة)) المغفرة والتعطف، ثم معاني النحو، كالابتداء، والإخبار، والفعلية، والفاعلية، والمفعولية، والحالية، والظرفية...الخ.

٢-أن النظم يعني ترتيب معاني الكلمات على وفق الترتيب النحوي، كأن تقول في شأن النظم في مطلع سورة الفاتحة، جعل (الحمد) أولاً للابتداء به، وجعله (لله) ثانيًا للإخبار به عن الحمد، وجعل (ربِّ) ثالثًا لكي يوصف به الله سبحانه وتعالى.

٣-أنَّ ثمة ثلاثة أنواع من الترتيب في السلسلة الكلامية:

أ- ترتيب المعاني في النفس ((ترتيب معاني النحو)).

ب- ترتيب معاني الكلم تبعًا لترتيب معاني النحو.

ت- ترتيب الألفاظ تبعًا لترتيب معانيها.

الاعجاز القرآني:

ينكر عبد القاهر أن يكون الاعجاز في ألفاظ القرآن وحدها أو في معاني الكلمات مفردة، كما يرفض أن يكون في ترتيب الحركات والسكنات، أو في الفواصل، ولا يمكن أن نجعل الاستعارة أصلاً في الاعجاز؛ لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الاعجاز في آيات محدودة في مواضع من السور الطوال المخصوصة، كما يقول فإذا امتنع ذلك لم يبق إلاّ أن يكون الأعجاز في النظم والتأليف وافكار النظم افكار للإعجاز.

عرض الجرجاني تصوراً جديداً يلغي ثنائية اللفظ والمعنى التي سادت الفكر البلاغي والنقدي العربي، فالنظم عنده محصلة العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعاني.

إذ إنَّ القراءة المتعجلة للدلائل تشير إلى أن الجرجاني ميال إلى المعنى من دون اللفظ، فهو دائم التكرار في أنّ الألفاظ أدلة على المعاني، وهذا حق طالما أن الألفاظ وحدها لا تعبر عن معنى من دون الدخول في علاقات، وليس للألفاظ قيمة إلاّ في ضوء موقعها من التركيب والتأليف والنظم، فليس هناك تفاضل في الألفاظ من حيث كونها وحشية أو غريبة، مألوفة أو مأنوسة، وقد غاب عن ذهن كثير من الناس، كما يرى أن قولنا لفظة (فصيحة)، أو (متمكنة) أو (مقبولة)، وفي خلاف ذلك (قلقة) و(نابية) و(مستكرهة) هو تعبير عن حسن الاتفاق أو سوء التلاؤم بين الألفاظ.

نظم الحروف والكلمات:

يكرر الجرجاني دائماً أنه إذا تغير النظم فلابد حينئذ أن يتغير المعنى؛ لأن النظم عملية إرادية واعية، لذا يقول: ((إن نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ... فلو أن واضع اللّغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما في ذلك ما يؤدي إلى فساد، واما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني وَتَرَتُّبيها على حسب ترتب المعاني في النفس، فهو إذن نظمٌ يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النَّظم الذي معناه ضمُّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق)).

نفهم من ذلك أنَّه لا قيمة للألفاظ مفردة، لأنَّه ليس للمتكلم أن يتصرف في معناها أو في نظم حروفها.

أنواع العلاقات في الخبر:

فصّل الجرجاني في الخبر وكونه أصل المعاني، وأنه لا يقوم إلاّ بين شيئين، يقول: ((ومعلوم أنّ الفكر من الإنسان يكون في أنْ يُخْبِرَ عن شيء بشيء، أو أنْ يصف شيئًا بشيء ...)) وهذا كلّه لا يحصل باللفظ وحده، وإنما شيء زائد عن اللفظ، هذه الزيادة ليست اكثر من العلاقات التي يقيمها المتكلم بين الألفاظ والمعاني.

ولا يستثني الجرجاني المجاز من فكرة العلاقات، لإنَّ اللفظة لا تكون مجازاً بنفسها عندما تنقل من معناها الحقيقي إلى معنى مجازي. فالمعنى المجازي الجديد لا يكون إلاّ في سياق. وليس الأمر في قوله تعالى: ((واشتعل الرأس شيبًا)) في (اشتعل) التي نقلت من معناها الحقيقي إلى معنى مجازي، إنما في كون الاشتعال قد أسند إلى الشيب.

السرقات الشعرية:

لقد كانت للجرجاني نظرة في مسألة السرقات الشعرية اذ كان يحاور نفسه من أخذ الشعراء معاني غيرهم، وفي اكساء المعنى القديم ثوباً جديدًا، إذ لم يخطر بباله أن صورة المعنى عند الشاعرين متطابقة إلا إذا عمد عامد إلى بيت فيضع مكان كل لفظة منه لفظًا في معناه، ولا يعرض لنظمه وتأليفه مثل أن يقول في بيت الحطيئة:

دَعِ المكـــــارمَ لا تَرْحَـــــلْ لِبُغْيتِهـــــا واقْعُـدْ فإنَّـك أنـت الطـاعِمُ الكاسـي

ذَرِ المـــــآثرَ لا تَـــــذْهَبْ لِمَطْلَبِهَـــــا واجْلِـسْ فإنـكَ أنـت الآكـلُ اللابـسُ

يقول: ((ذاك لأن بيت الحطيئة لم يكن كلاماً وشعراً من أجل معاني الألفاظ المفردة التي تراها فيه مجردةً معراةً من معاني النظم والتأليف... فالذي يَجيء فلا يُغيِّر شيئًا من هذا الذي كان كلامًا وشعرًا، لا يكون قد أتى بكلامٍ ثانٍ وعبارة ثانية، بل لا يكونُ قد قالَ من عند نفسه شيئًا البتةَ)).

نستنتج من ذلك أنه إذا تغير النظم والتأليف فد تغير المعنى، وليس ثمة سرقة أو أخذ، بل أن مجرد قول النقاد عن تماثل المعاني (أنه أخذ المعنى من صاحبه فأحسن وأجاد) وقولهم: ((إنه أساء وقصر)) دليل على أن المعنى لم يأت هو نفسه وإلاّ لم يكن لقولهما معنى ابدًا، فإن (أحسن) و(أجاد) و(قصر) لا يعني غير أن الثاني جاء بالمعنى في صورة مختلفة.